الفصل الثامن

محمد رجب البيومى
..وسبعون عاما من العطاء الفكرى والأدبى

لله

درك يا أبا حسام، فقد ودعتنا أو ودعناك فى ظروف عصيبة، شملت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وقد كانت مصر وأحوالها همَّك الأول، ولعلك الآن تنعم بما آلت إليه أحوالها بعد تلك الأهوال، التى كادت تعصف بكل شىء - لا قدَّر الله - فالله تعالى قد ضمن لمصر الحماية والأمن فى قرآنه الكريم. بل وأمر كل من يريد أن يلوذ بالأمن والأمان عليه أن يتوجه إليها، فهو القائل سبحانه: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[1].

لله درك يا أبا حسام.. ما أشبه ظروف رحيلك بظروف رحيل زعيم من زعماء النهضة الإسلامية والأدبية هو السيد مصطفى لطفى المنفلوطى - رحمه الله - والذى تحدثت عنه كثيرا فى كتبك ومقالاتك، فقد شُيِّع الرجل أيضا يوم اعتدى على زعيم الأمة سعد زغلول، فانشغل الناس بسعد، ولم يتح للمنفلوطى التشييع المناسب الذى يستحقه ويليق بمقامه، حتى إن شوقيا - رحمه الله - قد عبَّر عن ذلك شعرا فقال:

(١) سورة يوسف الآية ٩٩.

اختـرت يـوم الـهـول يوم وداع ونعاك فى عـصف الرياح الناعى
هتف النعاة ضحى فأوصد دونهم جـرح الرئيس مـنـافـذ الأسـمـاع
من مـات فى فزع القيامة لم يجد قـدمـا تـشـيـع أو حـفـاوة سـاع

ولكن مـا يعزينا فى هذا الـوداع الهادئ، أنه يتمشـى مع طبيعته الهادئـة الوديعـة، وتواضعه الجم، وإنكاره للـذات، وإيثاره المعهود للجوهر والمضمون والموضوعية، وتغليبه للمصلحة العامة، وابتعاده عن التزاحم فى الصفوف الأمامية، وكل ما كان يعتبره من الأمور الشـكلية التى لا تقدم ولا تؤخر.

ومع كل هذا، أشـهـد أنـه لم يأخذ حظه بالمقارنـة إلى كثيرين جدا ممـن هم دونـه قيمة وقامة وقـدرا وعلما وعملا وفضـلا. فلم يفز مثلا بجائـزة الدولة التقديرية فـى الآداب، مع أنه تجاوز بمراحل كثيرين ممن فازوا بها، كما لم يحظ بعضوية مجمع اللغة العربية، وهو من هو فهما لدقائق العربية وأسـرارها، وبلاغة وبيان كنوز تراثها من القديم والمعاصر والحديث.

بل إن إدارة مجلة «الأزهر» دأبت بتعليمات مُشدَّدة منه – رحمة الله عليه – على رفض نَشْر أية مقالات حوله أو حول أدبه وكتبه، ظنا منه أن هـذا ربما يدخل تحت ما يُعرف باسـتغلال النفوذ. لكونه رئيسـا لتحرير هذه المجلة العريقة.

الدكتور محمد رجب البيومى – رحمه الله وأسكنه فسيح جناته– قامة شامخة فى مجالات شتى، فمن الدراسات الأدبية والبلاغية واللغوية إلى

الإنتاج الأدبى بأنواعه المختلفة، من قصة ورواية ومسرحية، فضلا عن ريادته وتربعه على عرش المقال الأدبى لأكثر من ستين عاما. كما شمل عطاؤه العلمى أيضا الدراسات القرآنية، فى مجالات الإعجاز والبيان القرآنى، والرد على المستشرقين المارقين من الذين خاضوا فى القرآن الكريم بغير حق، كما تطرق أيضا إلى الترجمة الأمينة الرصينة الوافية لأعلام النهضة الإسلامية والأدبية، ورموز الفكر والأدب والإسلام والحضارة العربية بشتى أطيافها من المصريين والعرب والمسلمين، فى موسوعة له من خمسة أجزاء، فضلا عن فصول أخرى كثيرة لم يشملها هذا الكتاب، نشرها سواء فى المجلات الثقافية المختلفة أو كمقدمات لكتب كثيرة لهذه الأعلام والشخصيات المرموقة، سعى إلى نشرها شهريا كملاحق لمجلة الأزهر.

هذا، إضافة إلى إنتاجه الشعرى الباذخ فى مجالاته المختلفة، من دواوين الشعر التقليدى والدينى والملحمى أو المسرحى، والذى نال إعجاب القُرَّاء والمؤسسات لرسمية المحترمة كمجمع اللغة العربية وغيره، وقد حظى بجوائز أدبية عن معظم هذه الأعمال. كما ألف أيضا مجموعة هائلة من القصص القصيرة والطويلة، نال عن بعضها الجوائز والتقدير الأدبى.

النشأة والتدرج العلمى

ولد الدكتور البيومى فى عام ١٩٢٣ فى قرية «الكفر الجديد» التابعة

لمركز المنزلة بمحافظة الدقهلية بدلتا مصر. وبعد أن أنهى دراسته قبل الجامعية فى المعاهد الأزهرية نال عالمية الأزهر من كلية اللغة العربية عام ١٩٤٩، ثم حصل على دبلوم معهد التربية العالى، ليعمل مدرسا للغة العربية بمؤسساتنا التعليمية قبل الجامعية كعمله مدرسا بالمدارس الثانوية بالإسكندرية عام ١٩٤٨، ثم مدرسا أول بدار المعلمات بالفيوم وغيرها. ثم نال الرجل درجة الماجستير فى العام ١٩٦٥ عن رسالته حول «الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير»، ودرجة الدكتوراه فى الأدب والنقد عن أطروحته بعنوان: «البيان النبوى» فى العام ١٩٦٧.

وقد عُيِّن بجامعة الأزهر، إثر حصوله على درجة الدكتوراه، مدرسا بقسم اللغة العربية، وارتقى بها حتى نال درجة الأستاذية، فعمل عميدا لكلية اللغة العربية بالمنصورة التابعة لجامعة الأزهر لمدة عشر سنوات، فأستاذا متفرغا فأستاذا غير متفرغ فى قسم اللغة العربية، كما عمِل أستاذا بجامعة الإمام محمد بن سعود بالمملكة العربية السعودية.

وقد اختير رئيسا لتحرير مجلة «الأزهر»، ليقفز بها قفزات وثابة نحو تجديد شبابها، والاضطلاع بمسئولياتها الجسام للقيام بنهضة فكرية ودينية وأدبية شاملة، شكلا ومضمونا، مما لفت الانتباه نحو هذا التجديد الحميد، وأغرى شقيقاتها من المجلات الأخرى، التى تعمل فى حقل الإعلام الدينى، سواء فى مصر أو البلاد العربية، بالتطوير والتجديد المُفيد للقارئ والمجتمع على حد سواء.

الكتابة.. والتأليف هاجسه الاول

والجدير بالذكر أن نسجل هذ أن الكتابة كانت باعثا قويا لديه، وأمرا ملحا عليه، دعاه لأن يراس أشهر مجلة أدبية ويكتب فيها، وهو لم يزل بعد فى السابعة عشر من عمره، فنشر له الأستاذ محمد حسن الزيات فى مجلته «الرسالة»، التى كان يستكتب فيها كبار كتاب العصر كالعقاد وطه حسين وأحمد أمين وزكى مبارك وتوفيق الحكيم، وغيرهم من أقطاب الأدب المبرزة وأساطينه البارزة، فظهر له فى العدد ٣٤٢ سنة ١٩٤٠ خاطرة بعنوان: «معنى بيت وإعرابه»، وهو مقال صغير حول شرح بيت من الشعر للأعشى مع بيان محاسن الجمال فيه[1]، ثم توالت مقالاته المطولة فيها.

وعلى هذا فقد بدأ الدكتور البيومى نشاطه الأدبى والفكرى مبكرا، حيث بدأ الكتابة فى أعرق المجلات الثقافية والأدبية، التى كانت تصدر فى مصر والبلاد العربية ولايزال بعضها يصدر حتى الآن، فانتظمت كتاباته منذ الخمسينيات من القرن الماضى فى مجلات «الرسالة» فى إصداريها القديم والحديث، و«الثقافة» فى إصداراتها المتتالية، و«الأزهر»، و«الهلال»، و«المنهل» السعودية التى ربطت لصداقة بينه وبين رئيس تحريرها ومجلس إدارتها، فكان الكاتب الوحيد الذى ينشر فيها مقالين، أحدهما باسمه الذى نعرفه به، والثانى بكُنيته

(١) د. محمد رجب البيومى (١٩٤٠): مجلة الرسالة. عدد ٣٤٢، السنة الثامنة. ص ١٥٨ـ ١٥٩.

(أبو حسام)، ونشـر أيضا فى مجلة «الأديب» اللبنانية، كما كتب أيضا فى مجلات «التصوف»، و«منبر الإسلام» و«الكاتب»، و«البيان» و«الجديد» و«المنار الجديد»، ومجلة «الفيصل» السـعودية، و«الدوحة» القطرية فى إصدارها القديم، حينما كان يرأس تحريرها الأستاذ رجاء النقاش- رحمه الله- كما كتب فى «الوعى الإسلامى» الكويتية، و«منار الإسلام»، حينما كانت تصدر بالإمارات العربية إلى عهد قريب، ومجلة «الأدب الإسلامى» التى تصدرها «رابطة العالم الإسلامى»، وصحيفة «صوت الأزهر»، التى ظهر فيهـا آخر مقال له (بعد وفاته فـى ١٨ فبراير ٢٠١١) فى عموده «نظـرات أدبية»، تحت عنوان: «عاقبة أليمـة»، يورد فيها أقاصيص قصيرة، يُعبِّر فيها بشـكل أدبى ورمزى، ليسوق من خلالها آراءه حول ما كان يحدث من ثورة عارمة فى «ميدان التحرير».

التزامه للحق فى كتاباته وآرائه

ربمـا كان وراء ابتعاده عن الأضواء، أو بالأحرى انحسـار الأضواء عنـه، هـو التزامه للحيـدة وإيثاره للحـق. فى كل مـا يكتب ويرى مـن آراء، وابتعاده عن الزيـف والمجاملات الزائفـة، واللهاث وراء المسئولين على كافة المستويات، بهدف الانتفاع أو الحصول على منصب أو جاه أو حظوة أو مكسب غال أو رخيص. ومن ثم لم يؤثر عنه أنه كان من «شلة» هذا أو من مجموعة ذاك، ولما أن أصبح ممن يمكن أن يكون له رجال وأتباع و«شلة» لم يسمح لنفسه أيضا بها.

أما على المستوى العلمي والأدبى فكان لا يكتب ويوثق إلا ما يرى أنه الحق، حتى وإن تعارض ذلك مع ما يراه بعض أصدقائه ومعارفه، ومن هذا ما جاء فى آخر الفصل الذى كتبه عن الأستاذ العلامة أحمد محمد شاكر، فى كتابه «النهضة الإسلامية فى سِيَر أعلامها المعاصرين» بالجزء الرابع، بعد أن أثنى على الرجل وعدَّد مناقبه، ثم قال: وإذا كنت قد خالفت الأستاذ شاكر فى تشدُّده المتربص بالدكتور هيكل، وبالأستاذ العقاد، فلأن ما أنشره الآن بمجلة «الثقافة» الغراء سأسجله بالجزء الرابع من كتابى: «النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين»، وقد سبق الحديث فى الجزء الثالث عن هيكل والعقاد! سبق الحديث عن دوريهما الأدبى فى إعجاب واثق، ولابد من الدفاع عنهما حين يفرض الحقُّ المُلحُّ على الكاتب أن يجهر بما يرى أنه الصحيح عن إخلاص لا يشوبه تعصُّب أو افتئات[1].

هذا هو الرجل وهذه هى معاييره؛ وموازينه حينما يرى الصواب. فإنه يتحراه. ولا يحيد عنه لمجاراة صديق أو مجاملة عابرة، أو موقف يمكن أن ينتهى وتنقضى ظروفه على أية حال كانت. لهذا كان يحز فى نفسه مواقف طلاب المصلحة، الذين يتزلفون ويتقربون. وربما يصانعون وينافقون ويُظهرون غير ما يُبطِنون. حتى إذا انقضت مصالحهم، ظهروا على

(١) د. محمد رجب البيومى (١٩٨٤): النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين. الجزء الرابع. سلسلة البحوث الإسلامية الصادرة عن مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة. السنة الخامسة عشر - الكتاب الثالث. ص ١٤٠.

حقيقتهم، وكشـروا عن أنيابهم وأداروا لك ظهر المجن. وفيهم يقول شعرا تحت عنوان دالّ يصف أحدهم خير وصف فى حال الحاجة والاستغناء. أى حين يُلح فى الطلب وحين يكف عنه، وهو «نابح». فيقول:

تـأمـلـت مـن يـسـعـى إلىّ فـلـم أجـد
سـوى مـجـتـد يـسـدى له البر مانح
فـإن عـزّ واسـتـغـنـى تـنـاءى كـأنمـا
تـوقـع مـنى الـزهـو حـيـن أصـافـح
ولـسـت أخـا منٍّ فـيـنـكـر مـشـهـدى
ولـكـن عـقـوق أكـدتـه الـمـلامـح
تـؤم كـلاب الـحـى بـيـتـى جـوعـا
فـإن شـبـعـت لم يـطـرق الباب نابح
إخـال بـه غـيـظـا لأنـى أعـنـتـه
فهل كنت أجفوه، فتشفى الجوانح؟
شـمولك بعض الناس بالعطف باعث
أسـاهـا فـتـخـفـيـه، وليست تصارح[1]

من مؤلفاته

مـن الصعوبة بمـكان حصـر مؤلفات الدكتـور البيومـى الكثيرة، فالرجـل غزير الإنتـاج متنوعة، وقد نشـر إنتاجـه الغزير فى مصر

(١) د. محمد رجب البيومى (١٩٩٨): حنين الليالى. مكتبة الدار العربية للكتاب. القاهرة. ص ١٤٣.

فى دور نشر مختلفة. وفى البلاد العربية كلبنان والمملكة العربية السعودية وغيرها. ولم يكن يذيل مؤلفاته كغيره من كتاب كثيرين باستعراض مؤلفاته الكثيرة. لهذا يصعب حصر هذه المؤلفات.

ويمكن تصنيف هذه المؤلفات على النحو التالى:

مؤلفات إبداعية: وتنتظم ضمن هذه المجموعة دواوين الشعر، ومنها: صدى لأيام، حنين الليالى. من نبع القرآن. حصاد الدمع (وهو ديوان كرَّسه لرثاء زوجته - رحمها الله).

ومن مسرحياته الشعرية: انتصار. فوق الأبوة. ملك غسان. بأى ذنب.

أما قصصه الإبداعى والتاريخى فمنه: فاتنة الخورنق. فى قصور الأمويين. الحبل الأسود. فتى العرب. المهمة العاية. مؤامرة فاشلة. المغامر الشجاع. يوم المحد. الفارس الوفى. دجال القرية. الفتاة المثالية. رحلة الخير. بطل شيبان. إلى الأندلس. الله معى. إلى الإسلام. الأصل الطيب. حكمة الله. لست وحدى. من القصص الإسلامى (جزءان).

البيان والنقد الأدبى: ومن الكتب التى نشرها فى هذا الباب: خطوات التفسير البيانى. البيان القرآنى. البيان النبوى. أدب السيرة النبوية عند الرواد المعاصرين: مناقشات وردود. النقد الأدبى للشعر الجاهلى. أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبى.

الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير، دراسات أدبية، حديث القلم، نظرات أدبية (٤ أجزاء)، قطرات المداد، التفسير القرآنى.

مصنفات تاريخية وتراجم ومنها: الأزهر بين السياسة وحرية الفكر، مواقف خالدة لعلماء الإسلام، النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين (خمسة أجزاء)، مع الأبطال، ابن حنبل، صفحات هادفة من الأدب والتاريخ، صفحات من التاريخ.. أبرياء ويتهمون.

كتابات إسلامية عامة: من منطلق إسلامى (جزءان)، فى ميزان الإسلام (جزءان)، المثل الإسلامية، فى ظلال السيرة، قضايا إسلامية: مناقشات وردود (جزءان)، من شرفات التاريخ، من القيم الإنسانية فى الإسلام، كتاب «الإسلام وأصول الحكم» فى الميزان، علماء فى وجه الطغيان، المسجد فى الإسلام: عبادة وثقافة، المجتهدون فى ميدان التشريع، صور من البطولات الإسلامية.

هذا، فضلا عن جمعه لبعض الآثار الأدبية والنقدية والخواطر الخاصة بكل من الأستاذ محمد فريد وجدى والشاعر الأستاذ عبد الرحمن شكرى، وتحقيقها ووضع المقدمات اللازمة لها.

وهناك حشد هائل من المقالات التى لا تحصى فى المجلات الثقافية والأدبية والإسلامية فى مصر والبلاد العربية يصعب على الباحث البيليوجرافى أن يتتبعها فضلا عن جَمْعِها وتبويبها توطئة لنشرها؛ ذلك أنها غطت مساحة زمنية تربو على سبعين عاما متصلة، هذا فضلا

عــن أن بعض هذه المجــلات قد احتجبت أو فُقِدت، كما فقدت أشـياء كثيرة فى الفترة الأخيرة!

نماذج من شعره

ولا نسـتطيع أن ننهى هـذا الفصل دون أن نعرج على واحة شـعره الوارفة الظلال. فالرجل – كما يقول الأسـتاذ أحمد مصطفى حافظ[1]: شاعر يمتلك ناصية التعبير عن مشاعره وأحاسيسه.

ومن ديــوان «صدى الأيام» نطالع بعضا مــن قصيدته بعنوان «أبى»، تقطر وفــاء وعرفانا بفضل أبيه عـيه. وما قدمه له طواعية برغم أنه لم يكن من الموسرين. وفى هذا يقول:

وآثـر تعليمى، ولـم يـك ذا غنى فـأنـفـق جهدا طـال منه تعجبى
يـظـل وراء الـرزق يـكـدح مُتعبا لأرفـل فى نـعـمائـه غير متعـب
ويعلـم أنـى بـالـقـراءة مـولـع فيملأ بـالأسفار والصحف مكـتبى

ومــن ديوانه «حصاد الدمع» الذى جعل منــه قصيدة طويلة فى رثاء زوجتــه – رحمها الله – وفيه نقــرأ هذه الأبيات المؤثـرة والمعبرة عن معاناة الفقد ومصاب الفراق، حيث يقول:

أتأتى إلى نجــد لتلقى مـصـيرها وقد تركت خير الأطباء فى مـصر
بَنت أملا كالصرح فانهار فـوقها وفوقى، فأردانا ولـمّ نكن نـدرى

(١) أحمـد مصطفـى حافظ (١٩٨١) مجلة الجديد، عـدد أول فبراير ١٩٨١، ص ٢٦.

ثم يقول:

قد تغربت لا لشيء سوى أن ... نقضى العمر في بلادى هنيّا
أجمع المال كادحا لتعيشى ... فى حياة، ترف زهرا شذيّا
ولك المطعم النظيف شهيا ... ولك المنزل الرحيب عليّا
ولأطفالنا من الخصْب والرفه ... حياة تفيض نورا وريّا

إلى أن يقول:

أنتِ أنت التى دفعت إلى هذا ... وشاركتنى المكان القصيّا
كم تباطأت أستخف فأبديتِ ... جفاء مُرا وغيظا حميا
ومددت الآمال تبنين حلما ... ضاحك الوجه، فاتنا عبقريّا
وهتفتِ: الأولاد يبغون تأمينا ... بدنيا تعجُّ بؤسا وغيّا
لما لا ندفع الأعاصير عنهم ... إذ نقيم السياج صلبا قويّا
حسرتاه، وألف واحسرتاه ... حينما انْهدَّ كل شيء عليّا!
أسفى أن أجيء مصر وحيدا ... حيث لا ننزل المطار سويّا

وقد تقدم ما نقلناه آنفا عن ديوانه «حنين الليالى»، فيكفينا هذا للدلالة على شاعرية الرجل وصدق إحساسه، وعمق مشاعره، وهو الذى يصور الشاعر بأنه ذلك الذى: يعبر عن ذاته، ونزعات وجدانه الصادقة، فى إطار يتناسب مع حرارة التجربة وصدق الانفعال.

رحم الله أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى رحمة واسعة، فقد تعلمنا منه الكثير والكثير سواء بشكل مباشر، من خلال ما كنا

ولازلنا نقتبسه من دُرر علمه ونشير إليها فى مواضعها، أو بشكل غير مباشر مما علمنا إياه من تقنية الكتابة وأصولها العلمية، حيث كان يُعبِّر بسلاسة وبساطة، عن كثير مما لا نستطيع ولا يستطيع كثير غيرنا التعبير عنه. حتى بعد الجهد والمحاولة تلو الأخرى، فى أمور كثيرة، لاسيما حينما كان يتعرض إلى مُناقشة المسائل العامة والأحداث الجارية فى سهولة ويسر وكأنما يتحدث إلينا بتلقائية وطلاقة وصدق كبير.

❑❑❑